أكلة الدبابات :

وكانت أهم المشكلات التي واجهت قواتنا البرية على الضفة الشرقية للقناة هي كيف يصمد المشاة أمام هجمات دبابات العدو لمدة تتراوح بين ١٢ــ ٢٤ ساعة قبل أن تعبر الدبابات والأسلحة الثقيلة المصرية ، وهي الفترة التي لم ينتهِ فيها بناء الجسور والكباري على القناة ؟

ويقول الفريق الجمسي : " لقد كان من أصعب المواقف التي واجهت المشاة هي تلك الفترة الحرجة التي استوجب عليهم فيها القتال في مواجهة دبابات العدو قبل أن تصل الدبابات المصرية إلى ساحة القتال ، وهي فترة لا تقل بحالٍ من الأحوال عن ٨ ساعات ، وقد تطول هذه المدة إذا تأخر إنشاء المعابر أو تعطَّل تشغيلها ، واشتباك الجنود مع الدبابات هو قتال غير تقليدي يتطلب شجاعة كبيرة ومهارة فائقة .. " ، خاصةً مع اهتمام إسرائيل المفرط بسلاح المدرعات التي كانت تعوِّل عليه وعلى سلاح الجو أهمية كبيرة ، فقد اهتمت إسرائيل إلى حدٍ بعيد بسلاح المدرعات ، فحصلت على أحدث الدبابات الأمريكية (إم ــ ٦٠) وناقلة الجنود المدرعة (إم ــ ١١٣) القادرة على قطع

الحواجز المائية بأي عمق ، كما أدخلت تعديلات على الدبابات طراز (باتون) فجهزتها بمدفع عيار ١٠٥ مللم وبمحرك ديزل قوته ٧٥٠ حصان (مدى عمله ١٠ ساعات كاملة بغير توقف) وأصبحت تتسع لكمية ٥٥ قذيفة بدلاً من ٤٣ قذيفة ، وجهزتها بأجهزة ألكترونية وأجهزة تعمل بالأشعة تحت الحمراء لتساعدها على القتال الليلي

بالإضافة إلى وضع خطة تموين للدبابات والآليات بالوقود أثناء العمليات بواسطة الطائرات الهليوكبتر ، كما أدخلت إسرائيل تعديلات على عدد من ناقلات الجنود نصف المجنزرة من طراز (إم ــ ٣) فزودتها بمدفع مضاد للدروع عيار ٩٠ مللم ، كما زودت إسرائيل جيشها بدبابات تُستخدم كأبراج مراقبة ودبابات لوضع الجسور من نوع (باتون : إس ــ ٤٨ أ / ٢ س) وهي دبابة بدون برج تحمل جسرًا على شكل مقص يتم مده بواسطة أجهزة هيدروليكية ، والجسر مصنوع من الألومنيوم ويبلغ وزنه ١٣ طنًا ، ويمكن أن تعبر عليه دبابة وزنها ٦٠ طنًا بالإضافة إلى آليات أخرى ، وفي حالة إصابة الجسر يمكن تركيب جسرًا آخر على الدبابة لتواصل عملها ، ويمكن لهذه الدبابة أن تعمل لمدة ست ساعات متواصلة دون الحاجة إلى التزويد بالوقود .. وبرغم التطور الرهيب الذي وصل إليه سلاح المدرعات الإسرائيلي فقد دُمِّرتْ الدبابات الإسرائيلية بل وقد دُمِّرَ لواء كامل منها بواسطة المشاة المصريين .. كيف ؟!

لقد اعترف العالم أجمع خبراؤه ومعلقوه وصحفيوه ومذيعوه أن المشاة المصريين قد أقاموا حائط للدبابات رهيب استطاع تدمير آلاف

الدبابات الإسرائيلية وقامو بنسج أسطورة تكنولوجية بطولية عظيمة تُضاف إلى أمجاد مصر .. إن الأسلحة الصغيرة التي كان يحملها المقاتل المصري أثبتت فاعليتها في ساحة القتال ..

إن السلاح الذي واجه هزيمة يونيو ٦٧ هو نفسه السلاح الذي سجل انتصارات أكتوبر ٧٣ ، السلاح لم يتغير لكن الذي تغيَّر هو الإنسان المصري الذي استخدمه وكذلك الأسلوب الذي خطط للمعركة والطريقة التي أُديرت بها .. فالجندي هو الذي يستخدم السلاح وليس السلاح هو الذي يستخدم الجندي .. وهذا ما لم تستوعبه القيادة الإسرائيلية ، وأسرفت في الحصول على أحدث الأسلحة الأمريكية التي وصفتها على حد قول مجلة "العالم الجديد" البريطانية قائلة: " هي الأسلحة التي تحل محل الرجل في ميدان القتال " .. وقد ثبت فشل هذه الرؤية التي تبنتها عقولٍ لا تعرف إلا الأرقام وتفتقر إلى قوة الإرادة ، وقلوب لا تعرف الإيمان ، لقد فاقت النتائج جميع الحسابات الموضوعة ، فالخبرة والكفاءة والعقل المصري كان بمثابة إضافات جديدة غيَّرت من الحسابات حتى أعلن الخبراء العسكريون العالميون أن حرب أكتوبر غيَّرت من مفاهيم عسكرية كثيرة ، وأن العالم يعيد حساباته العسكرية من جديد .

ويقول أحد المراسلين العسكريين الأجانب : " إن مواجهة دبابة تطلق نيرانها لأمرٍ مرعب حقًا ، وانتظارها حتى تقترب إلى مرمى السلاح الذي يحمله الجندي يحتاج إلى أعصاب من فولاذ ، بل أن مشهد وصوت انفجار الدبابة بعد ضربها عن قرب منظرٍ يهز الأبدان هزًا " .

ويقول "باروخ باري" أحد قادة كتائب الدبابات الإسرائيلية في القطاع الأوسط في مذكراته عن حرب أكتوبر ٧٣ : " كان أكثر ما شغل اهتمامي عندما صدر لي أمر التحرك هو أن يكون لدينا كميات كافية من الملابس الداخلية والكتب لنكسر الملل بعد هذه النزهة التي خرجتُ من أجلها ، وعندما وصلتُ مع رجالي إلى قرب البحيرات المرة الصغرى في محاذاة التصاق البحيرات بالقناة بدأنا نشعر بالاطمئنان عندما لاحظنا أن الأهداف التي تواجهنا هي جنود المشاة المصريين وليست المدرعات .. وكان تعليق أحد رجالي : " من الواضح أن المصريين يريدون الانتحار !!"

وبدأ "باروخ" يطلق قذائف مدافعه ويغيِّر مواقع دباباته ، والمصريون أمامهم كما هم ولم يتنبه إلا والنار تشتعل فجأة في مؤخرة دبابته وأحس بحروق في ذراعه وألقى بنفسه خارج الدبابة التي احترقت كما تحترق علبة الكبريت !! " ، ويقول الجنرال "بيرن" الذي كان مكلفًا بمهاجمة جسر "الفردان" : " كان المصريون يركضون نحو الدبابات يتسلقونها ويقتلون من فيها بغير نهاية لما يفعلون وشعرتُ أن موقفنا أخذ في الانهيار ورأينا حولنا ألوف الجنود المصريين يهجمون وكلما هجمت موجة إسرائيلية

حصدها المصريون .. " ، وهكذا كانت المعارك تجري بصورة لم تحدث في أي حرب أخرى في العالم ..

والظاهرة العسكرية التي حيَّرت العسكريين الإسرائيليين في معارك الدبابات هو الجندي المصري .. كان المشاة المصريون يتقدمون خلف الدبابات وعندما يسبقون دبابتهم ويبدأون في الهجوم على دباباتنا وظلوا على هذه الطريقة يتدفقون ويتقدمون طوال الوقت .. فالقناص يقف بصاروخه على بعد أمتار من الدبابة في شجاعة فائقة فيوجهه نحوها ليصل إليها في أقل من ١٥ ثانية فيشعل فيها لهبًا تصل حراراته إلى ٦٠٠٠ درجة مئوية .. لقد بلغ من خطورة هذا السلاح أن دبابات العدو عندما كانت تحس بوجوده في منطقة فإنها لا تقترب منها بأي شكلٍ وتبتعد عنها قدر الإمكان ..

لقد كانت شجاعة الجندي المصري التي ليس لها حدود هي العامل الأساسي الذي تحقق على يديه النصر ، وكان التخطيط المصري الدقيق والمنظم الذي وضع لكل شيءٍ حساباته هو العامل الآخر لتحقيق النصر .

وكان المخطط المصري لتحقيق التوازن على الجبهة بين المشاة المصريين والآليات العسكرية يرتكز على النقاط الآتية :

١. تنظيم عبور المشاة في قواربهم تنظيمًا تفصيليًا ، بحيث يعلم كل جندي مكانه في القارب ومكان اجتيازه للقناة ووقته وواجباته أثناء العبور .

٢. أن تحمل المشاة المكلفة بالعبور أقل ما يمكن حمله من التعيين والمياه وأكثر ما يمكن أن تحمله من السلاح والذخيرة ، وكان إجمالي ما يحمله كل جندي ٢٥ كجم ، وكان يصل أحياناً مع بعض الجنود إلى ٣٥ كجم .

٣. ابتكار عربات جر صغيرة يضع فيها المشاة ما لا يستطيعون حمله من أسلحة ويجرونها بأيديهم عبر الساتر الترابي وعند تحركهم شرق القناة .

٤. تسلح المشاة بأسلحة مضادة للدبابات ولاسيما الصواريخ الخفيفة التي يحملها الأفراد ، وذلك لصد هجمات العدو المضادة بواسطة مدرعاته .

٥. تسليح المشاة بالأسلحة المضادة للطائرات وخاصة الصواريخ الخفيفة التي يمكن حملها بواسطة الأفراد وذلك لصد هجمات العدو الجوية ضد قواتنا أثناء وبعد العبور .

٦. تجهيز المشاة بسلالم تساعهم في تسلق الساتر الترابي وتمكنهم من جر أسلحتهم وذخائرهم المحمولة في عربات الجر المعدة لذلك .

لقد واجهت قوات المشاة صعوبات بالغة في عبور المياه واقتحام خط بارليف بالمواجهة بخلاف ما كان متبعًا في مواجهة المواقع الحصينة بالاتفاف إذ لم يكن هناك مجال لتفادي خط المياه والتحصينات المتصلة به .. وفي الموعد المحدد تغطت صفحة القناة بزوارق الجند يعبرون تحت خطٍ كثيف من نيران المدفعية والطيران المنخفض

وانطلقت من المقاتلين لتطهير حقول الألغام الكثيفة التي مدَّها العدو في نطاقات متعددة فوق الساتر الترابي ومجموعات ثانية تولَّت إزالة نطاقات الأسلاك الشائكة التي كانت قد حولت الساتر الترابي إلى ما يشبه غابة من الشوك ، وتولت شق الثغرات ليتفق الرجال إلى حصون خط بارليف .. وبرزت أخطر المصاعب في مواجهة جندي المشاة لدبابات العدو مدة لا تقل عن ١٢ ساعة ، وهذا يعني مقاتلة دروع العدو بصدورٍ مكشوفة ، وهذا أمرٌ رهيبُ وقاسٍ ..

واستطاع رجال المشاة العراة من الدروع أن يصمدوا ببسالة وإصرار أمام هذه المدرعات واستطاعوا أن يفرضوا على العالم أن يعيد النظر في أساليب استخدام الدبابات وأصبحت نظرية "أكلة الدبابات" هي أول دروس التكتيك العسكري في الأكاديميات الغربية والشرقية على حدٍ سواء .. فلم تكن الصواريخ هي مفاجأة الحرب .. بل كانت المفاجأة هي الرجال الذين استخدموها بمهارة فائقة .. ولأول مرة ترى ساحات المعارك مشهدًا مثيرًا لم يحدث من قبل .. جندي مصري من المشاة يجري وراء دبابة ليدمرها .. لقد حدثت المواجهة بين قواتنا البرية من المشاة مع ٣٠٠ دبابة إسرائيلية

موزعة على طول الجبهة وتمكنت قوات المشاة وحدها من تـــدمير ١٠٠ دبابة منها ..

كما كان للمشاة دور بارز من رجال وحدات الصاعقة والمظلات وهم أبرز فئات المشاة ، فقد أُسقطت أربع كتائب منهم خلف خطوط العــدو مــع آخر ضوء للنهار قاتلوا قتالاً مستميتًا على الطرق والمضايق في مواجهــة مدرعات العدو ودباباته لدرجة أن بعضهم كان يحمل علــى ظهــره ألغامًــا مضادة للدبابات يفجرون بها أنفسهم تحت جنزيرهــا إذا تعـــذَّر علــيهم إصابتها ، ومن الأعاجيب التي صنعها هؤلاء الرجال أن وحدة من وحــدات المظلات ظلت تسيطــر على أحد المضايق الهامة منذ ٦ أكتوبر وحتى ٢٢ من نفس الشهر ، وحرمت العدو من اجتياز هذا الممر طوال هــذه الفتــرة واستماتت في القتال بشراسة لا مثيل لها ..

وكانت المشكلة الأخرى التي واجهت قواتنا : كيف تصل الدبابات والمــدافع والذخيرة الثقيلة إلى وحدات المشاة التي سبق عبورها ؟ وكيف نعيد تنظيم

قواتنا على الشاطئ الشرقي للقناة ؟ وكيف يتم ذلك ليلاً تحت ضغط العدو ؟ وكيف تميِّز هذه الدبابات والأسلحة طريقها وتتعرف على وحداتها ؟ ويمكننا أن نتصور هذه المشكلة إذا تخيلنا أن آلاف الدبابات والمركبات والمدافع الثقيلة كان يتحتم عبورها لتنضم إلى وحدات المشاة التي عبرت لتزيد من قدرتها على التمسك بالأرض وصد هجمات العدو المتكررة ،

وقد قام رجال الإشارة ورجال الشرطة العسكرية بواجبهم على الوجه الأكمل ، فقد أمكن مد كوابل الإشارة عبر القناة منذ اللحظات الأولى للعبور كما تم تحديد الطرق والمدقات التي تسلكها الدبابات والعربات وتم تمييزها بالألوان المختلفة بحيث يعلم السائق أنه إذا اتبع اللون الأحمر مثلاً فإنه سيصل إلى وحدته في رأس الكوبري بينما يتبع سائق آخر اللون الأخضر وهكذا إلى حد أن ذكر أحد المراسلين الأجانب أن نظام المرور على الجبهة كان أفضل من نظام المرور في القاهرة ! وحاولت القيادة الإسرائيلية السيطرة على الموقف إزاء الهجوم المصري الكاسح فتراجعت إلى خط

الدفاع الثاني كي تتأهب لشن هجوم جوي مضاد ، ولكن حائط الصـــواريخ المصري كان لها بالمرصاد .

ويقول "أريل شارون" في مذكراته : " دفعنا ثمن غلطتنا عندما تركنا المصريين ينقلون صواريخهم (أرض ــ جو) إلى القنـــاة ، ولـــم ننشـــر وحدات الدبابات على طول القناة ، ولم يصدر أمرٌ بإخلاء خط بارليف فكان الناجون من الجانبين يطلقون استغاثات يائسة ، ولم تكن جهـــود الطـــواقم مجدية إذ قُتلوا جميعًا تقريبًا وخسرنا في اليوم الأول ثلثي الثلاثمائة دبابـــة المتوفرة في الخطوط الأولى .. " ، ووقفت "جولدا مائير" رئيسة الـــوزراء الإسرائيلية تصرخ في استغاثة ملحة لواشنطن : " انقذوا إســـرائيل !! " .. واندفعت الدبابات المصرية مساء يوم العبور تجتاز القناة لتشبك مع دبابات العدو في قتال ضارٍ بلغ ذروته بمعركة الدبابات الشهيرة ..